المقامة وتجريب منهج التلقي[1]

د. عماد الورداني*

المقدمة

لقد ظل إشكال التراث من بين الأسئلة التي مازالت تطرح نفسها بإلحاح على الثقافة العربية. فالماضي لا يمكن التحرر منه بالنسيان أو التجاهل، وإنما التحرر ينبني على فهمه واحتوائه وتجاوزه، وبهذا المفهوم يغدو التراث رؤية مستقبلية. لهذا ما فتئت تتضارب الجهود وتتنوع للبحث في تضاعيف المتون واستقراء أسرارها، وبعثها؛ لتسهم في تعميق أحاسيسنا تجاه الحياة.

إن البحث في أروقة التراث ظل مثار نقاش عميق حول جدواه. وفجر بذلك أنماطًا من الرؤى المتضاربة، ويأتي كتاب المقامات والتلقي للباحث نادر كاظم [2] ليرصد هذا التضارب الحاصل في المواقف تجاه جنس أدبي رأته العين رؤية رضا مرة ورؤية سخط مرة أخرى.

انطلق الباحث في دراسته «المقامة والتلقي» راصدًا لأشكال الدرس الذي تعرض له نص المقامة منذ طرحه سؤالا نهضويا إلى لحظاتنا الآتية مستلهمًا في ذلك نموذج ياوس حول التلقي. فإلى أي حد استطاع الكاتب أن يتعمق في رصد خصائص الكتابة عند أجيال من القراءات؟ وما أهم المعالم التي استوقفته في كتاباتهم؟ إلى أي حد أسعفته نظرية التلقي في كشف تصوراتهم التي انطلقوا منها؟

يقع الكتاب المقامات والتلقي في فصول ثلاثة ومدخل نظري، خص المدخل؛ لتحديد الإطار المنهجي الذي يتبناه الكاتب في حين فصول الكتاب جاءت موزعة حول التلقي الإحيائي، والتلقي الاستبعادي، والتلقي التأصيلي.

---

* باحث من المغرب

1 - التلقي الإحيائي والانتقال من الموت إلى الحياة

يعود نادر كاظم إلى التراث؛ ليكشف عن أنماط من القراءات التي عاصرت مقامات بديع الزمان الهمذاني ومواقف أهل عصره من صناعته، ويتوقف عند قراءة الخوارزمي والبغوي بوصفها قراءات قدمت صورة سلبية وقدحية عن المقامة، لكنه مقابل ذلك يكشف مواقف الثعالبي والحصري التي عدت المقامة نصا رفيعا. مما يبرز أن الأفق الذي انطلقت منه القراءات متناقض. بمعنى أن أفق الانتظار الذي جايل المقامة لم تتحدد معالمه بعد، أو مازال يبحث عن الشرعية خصوصا في جو سيطر فيه جنس الشعر، وتمكن النقد من إحكام هذه السيطرة على الأجناس السردية الوليدة، والمقامة كما يذهب الدكتور محمد أنقار جنس هجين زاوج بين امتداد الشعر وامتداد السرد، ورغم ذلك لم يحظ باعتراف كلي من قبل النقد القديم. وستأتي قراءة ثالثة ونهائية حيث تمت قراءة نص الحريري في ضوء مقامات الهمداني، أي قراءة السبق في ضوء الحالي، وظل هاجس التفاضل مسيطرا على هذا النوع من القراءات. كانت هذه القراءة بمنزلة موت المقامة والتمهيد لدخول عصر «الانحطاط»، حيث ستتراجع جميع الأشكال الجمالية التي استحدثتها الثقافة العربية، والمقامة على رأسها.

إن المقامة ستعود إلى الوجود إبان عصر النهضة حينما طرح إشكال التراث بوصفه أصل النقاء؛ لهذا ينبغي العودة إلى الأصول؛ لتصحيح نظرتنا إلى الواقع. يحصر الكاتب الاتجاهات الإحيائية التي اهتمت بالمقامة في ثلاثة اتجاهات وهي:التلقي الأدبي وقد بدأ مع اليازجي في مجمع البحرين، وانتهى مع محمد المويلحي في حديث عيسى بن هشام، ويقوم التلقي الأدبي على محاكاة نموذج الكتابة من حيث مكوناته وسماته الداخلية، وإن كان هناك نوع من التجديد في مقامات الساق على الساق لأحمد فارس الشدياق من حيث تغيير بعض مقومات المقامة كالتخلي عن عنصر الكدية واستدعاء مقوم آخر، وهو السخرية اللاذعة من الرموز.

التلقي الفيلولوجي ويؤرخ له الكاتب من الطبعات الأولى لنص الهمداني إلى نسخة محمد عبده، ويستعرض النسخ التي اعتمدها والتصويبات التي أضافها وشروحاته

وحذفه لبعض المقاطع التي تخدش حياءه.

التلقي النقدي ويبدأ مع رفاعة الطهطاوي، وينتهي مع روحي الخالدي حيث يعتمد الكاتب على ورود بعض الإشارات الخفيفة في تخليص الإبريز في تلخيص باريز للطهطاوي وموقف اليازجي من المقامات بوصفها قصصا مخترعة، ورأي الخالدي الذي سيرفض تقليد المقامة، وسيكتفي بذكر بعض خصائصها مع الرواية التمثلية.

كانت هذه أهم القراءات التي شكلت بالنسبة إلى الباحث إطار القراءة الإحيائية. ويؤكد أن هذه القراءات كانت تنطلق من أفق مشترك وهو «استعادة التراث العربي في عصوره المزدهرة؛ تحقيقًا لوجود الذات من جهة، وحماية لها من التحديات الخارجية»[3].

والملاحظ أن الخطاب الإحيائي كان يتعصب للماضي بوصفه أصلا للنقاء، فالماضي هو السلاح الذي ينبغي أن نواجه به الغرب. ولعل هذا الهاجس هو الذي دفع أصحاب الخطاب الإحيائي إلى استعادة التراث بأشكال مغايرة. وهو الهاجس الذي سينهار بعد نكبة فلسطين، حيث ستدفع الشارع العربي إلى إعادة النظر في الثوابت بشتى أشكاله.

2 - التلقي الاستبعادي ودوامة العنف:

إن تحول مفهوم الأدب أحدث ثورة في بنية التفكير في التراث كيفما كان، حيث أصبحت أدبية الأدب تقاس بمقدار تعبيره عن القيم والأحاسيس، ومدى ترجمة خصوصية الواقع. بهذا الفهم لطبيعة الأدب أخذت مجموعة من المواقف تعلن رفضها للقديم، وتطالب بضرورة الانفتاح على الثقافة الغربية قبل الموت، وكانت المقامة مجالا للاحتقان وإعلان الرغبة في إحداث القطيعة مع هذه الأشكال الجمالية انسجامًا مع مفهوم الأدب الحديث. أضف إلى هذا أن الذين رفضوا المقامة وطالبوا بموتها وجدوا لأنفسهم حججًا اقتنعوا بها، وأهمها: الجانب اللغوي، حيث طالب حسنين هيكل بثورة ضد حظائر الكتابة الضيقة وتحقيق الأدب القومي الذي يترجم معاناة الناس، ولن يتم هذا المبتغى إلا بتطوير اللغة واستنبات أجناس جديدة وإقبار أجناس أخرى،

وهي الدعوة التي وجدت صداها في كتابات يحيى حقي ومحمد يوسف نجم بأشكال مختلفة، حيث رفض نجم ربط ملامح القصة بالمقامة في حين جعلها مندور سببا في موت روح الأدب العربي، ومقابل ذلك ظهرت نماذج قرائية مختلفة، حيث أرادت الانتصار للتراث والاعتراف بميزته، وأهم تلك القراءات هي التي ركزت على الجانب التعليمي للمقامة كما ذهب شوقي ضيف والزيات وحنا فخوري..

إن قراءة المقامة ظلت تسير في اتجاهين متناقضين، اتجاه رفض الارتباط بالمقامة لأنها رمز إلى التراث الذي يجب قطع الصلة معه، لأنه لا يتوافر إلا على نماذج هيكلة مميتة ولا تساير ركب الحياة. واتجاه آخر أسهم في إنتاج صورة تنتصر للمقامة وتؤكد الجانب التعليمي والقالب القصصي الذي اتخذته وسيلة لإبراز موقفها.

إن اختلاف هذه النتائج هو اختلاف على مستوى الرؤية بالدرجة الأولى، فإذا كان الموقف الأول يرفض أي قيمة تذكر للتراث، فإن الموقف الثاني تبنى رأيا مغايرا، لكن في الواقع ساهمت القراءتان في إنتاج صورة سلبية عن مقامات بديع الزمان الهمذاني، وهي الرؤية التي سيعمل الجيل الجديد على تجاوزها. سواء النزعة التي قادها أصحاب التقديس، أو النزعة التي قادها أصحاب التدنيس.

3 - التلقي التأصيلي والبحث في أروقة التراث:

لقد خلفت القراءة الاسبعادية مجموعة من الأحكام الجاهزة، وأهمها أن التراث جامد وعقيم، لهذا كان من الطبيعي جدا أن ينطلق الجيل الجديد من محاولة الرد على الجيل القديم، وتصحيح ما يمكن تصحيحه. لهذا فالأفق الذي انطلقت منه قراءة التأصيل يختلف كليا عن الأفق الذي انطلقت منه قراءات محمد حسنين هيكل، والعقاد، وسلامة موسى، وأحمد حسن الزيات، وأحمد أمين، وزكي مبارك، واستمرت مع شوقي ضيف، وحنا فخوري..إنه أفق رأى أن التراث هو أصل الغنى والتنوع، والانتصار له هو انتصار للذات. وستصبح المقامة حسب هذه الرؤية مجالا لإثبات تفوق الذات ورمز للأصالة والسبق، وفي هذا المنحى سارت أغلب القراءات، أي محاولة إثبات القيم التي نفاها جيل الاستبعاد خصوصا فيما يتعلق بالبعد القصصي

في المقامة. وعموما يمكن تقسيم قراءة هذا الجيل قسمين، قراءة إثبات على السبق والتفوق، وقراءة اشتغلت على النص من الداخل، وحاولت إثبات قيم جمالية سردية، وذلك من خلال توظيف المناهج الحديثة.

أما قراءة الإثبات فهي تلك القراءات التي انطلقت من محاولة الرد على آراء الجيل السابق وإثبات الفرادة والسبق للمقامة خصوصا الذين وجدوا علاقات ووشائج بينها وبين أجناس أدبية أخرى كالقصة والمسرح والمقالة، حيث ربط شوقي ضيف وفاروق خورشيد وغيرهما المقامة بالقصة، ومنهم من جعل بديع الزمان الهمذاني أول من تعرف على القصة قبل موباسن، في حين ذهب علي الراعي وجابر قميحة إلى أن المقامة ظاهرة مسرحية.

لقد ظلت هذا القراءات تؤسس لمقولة أن ما عندنا يكفينا، وليس بالإمكان إبداع أبدع مما كان، وإننا بالفعل عندنا ما يثبت تقدمنا على الغرب في مجالات متنوعة. غير أن هذه القراءة لنص المقامة تتميز بالتعويم الجنسي، أي إلغاء مفهوم الجنس وقواعده، وتبين أشكال التلاقي وافتراضها، إلا أن مشكلة الوعي بالجنس هي التي غيبت عند أصحاب المقامة الذين تلقوها، فكون انفتاح المقامة على أجناس موازية تشكلت في لحظات زمنية مختلفة لا يمكن أن نؤطره داخل مسألة الوعي بالجنس بقدر ما نجعله رابطًا بين روح الإبداع وتلاقحه في جميع الأجناس الأدبية، بغض النظر عن القيمة التجنسية.

أما القراءة المنهجية فهي القراءات التي تمثلها دراسات عبد الفتاح كيليطو، وفدوى مالطي دوغلاس، وحمادي صمود، هذه القراءات التي ركزت على قيم داخلية للمقامة كالبناء السردي، وظلت تعمل جاهدة على إبرازها، وذلك بالتركيز على المتن من دون النظر إلى ما قيل حولها كما فعل الباحث المغربي عبد الفتاح كيليطو، أو تبني رؤية منهجية صارمة كما فعلت فدوى مالطي دوغلاس.

كانت هذه هي أهم القراءات التي توزع عليها الكتاب. فهو ممتد على رقعة زمنية تمتد ما بين أواخر القرن التاسع عشر إلى لحظتنا هاته، وهي مسافة زمنية طويلة

مما زاد من صعوبة العمل الذي أقدم عليه الباحث نادر كاظم.

التلقي والتجريب

إن ما يميز الدراسات الحديثة التي تهتم بالتراث، هو ارتباطها بالمتن، ومحاولة استلهام المناهج الغربية وتكييفها مع خصوصيات الثقافة العربية. مما جعل رؤيتنا للتراث تتغير، وإن كان الاشتغال على التراث بمفاهيم غربية مازال يواجه متاعب عديدة، وأهمها رفض العقليات المحافظة لكل ما يقدمه الغرب، لكنها رؤية بدأت تلين وتتوارى، لأن صوت الحقيقة العلمية أقوى. والمتتبع لتطور القراءات العربية يلاحظ ما مدى الفاعلية في إنتاج وسائل جديدة وقراءات جادة، فجيل طه حسين كان مسكونا بالمناهج التاريخية، أما جيل كمال أبو ديب وجابر عصفور نزع إلى المناهج النصية، في حين قراءة نادر كاظم جاءت لتهتم بالقارئ نفسه وتطلعاته تجاه نص المقامة، وهو تطور صحي يبرز مواكبة الساحة العربية لجديد المناهج الغربية.

إن هذا الانتقال من الكاتب نحو النص إلى القارئ، أحدث ثورات مهمة في طريقة تفكيرنا، فنحن الآن في ظل تنظيرات التلقي مطالبين بضرورة إعادة إنتاج التراث وبذل مزيد من الجهد للوصول إلى حقائقه، وتبقى كل قراءة ما هي إلا مسخ للقراءات السابقة حسب دريدا، وبناء على ذلك فقراءتنا تظل قاصرة وتحتاج إلى تقويم، وهو المبتغى الذي يسكن كل ناقد.

يطرح كاتب الدراسة سؤالا منهجيًّا، كيف يمكننا أن نجعل من هذا التفاعل موضوعا لدراسة منهجية ملموسة؟

إن طرح هذا السؤال بهذه الصيغة لن يجد صداه في تنظيرات النصية أو جانب من التنظيرات التي اهتمت بالتواصل وفعل الكلام، مما جعله ينفتح على تصور آخر هو تصور ياوس، حيث يرى أن القراء يعيشون ظروفا تاريخية واجتماعية مشتركة، وينطلقون من وسائل واستراتيجيات واحدة، لهذا فإن قراءاتهم تستجيب لأفق واحد.

إن القارئ حينما يواجه النص، يواجه تاريخه في الأساس، مما يعني أنه في حركية

دائمة، فالنص لا يكتمل إلا حينما يصطدم بقارئه [4]، وهي الفكرة التي تنبه لها جيل رولان بارت، واستلهمها أصحاب نظريات التلقي بجل مشاربهم. إن تحولات النص هي في الأساس تحولات القراءات، وهي الفكرة التي تبناها ياوس ودافع عنها فيما سماه مفهوم «أفق التوقع» والمفهوم تتقاسمه مجالات عديدة، وأبرزها فينومينولوجيا الإدراك عند هوسرل في تطبيقاتها عن خبرة الوعي، ويحضر هذا المفهوم على شكل خلفية، أي أنه لا يكون متاحا بطريقة مباشرة بقدر ما هو آليات داخلية مشتركة [5].

ومفهوم أفق التوقع هو ركيزة أساس في تصور ياوس، وعليه يقوم مفهومه لتاريخ الأدب. ويترتب على مفهوم أفق التوقع مجموعة من النتائج أهمها:

- إن عملية التلقي ليست انطباعية، ولكنها تنفيذ لتعليمات معينة في إطار عملية إدراك موجهة يمكن فهمها من خلال فهم البواعث التي تكمن خلفها الإشارات التي تحركها[6].
- إن القارئ ليس مجرد ردود أفعال، وإنما هو طاقة محركة للتاريخ، فهو فاعلية تنشط خمول النص وتحركه.
- إن علاقة العمل الأدبي بالقارئ هي علاقة تجاذب واتصال، وموت القارئ هو فناء النص، لهذا فإن موت القارئ في حقبة زمنية معينة، ثم عودته إلى الحياة في حقبة زمنية أخرى يعرض النص الأصلي للتشوه، أي أن مبدأ الاتصال ينقطع، ومعه تتراجع القدرة التأويلية إلى درجة الصفر.
- إن حركية القراءة تجعل الأفق العام يتعرض لهزات متتالية استجابة لمفهوم الخرق، فأفق الانتظار يتأسس على آليات مشتركة، ثم يتم تعديلها وخرقها، وفي كل لحظة تعديل واختراق يتم تأسيس آليات قرائية جديدة.
- إن مفهوم التاريخ الذي يطرحه ياوس يختلف عن التصورات الكلاسية التي تنطلق من حياة المبدع وعصره، أو التصورات الشكلانية التي حاولت وصف تاريخ الأجناس من حيث الأنظمة التي تتحكم فيها، بل هو تاريخ يتأسس على التفاعل وارتباطه بالحياة الاجتماعية، وهي فكرة كان قد سبق إليها يان موكارفسكي

حينما أكد أن التطور الأدبي والتطور الاجتماعي ينبغي أن يدرسا في تعالقهما البنيوي[7].

يرى الباحث أن مفهوم أنماط التلقي كما استخدمه في الدراسة يتماهى مع مفاهيم أخرى من قبيل مفهوم النموذج الاستبدالي أو الإرشادي لتوماس كون ومفهوم الجماعة التفسيرية لفيش، وإن كنت أرى أن المفهوم يقترب أكثر إلى مجالات أخرى، مع تأكيد أن مفهوم فيش وكون يدخل فيما يسمى بنقد الاستجابة الذي يستند إلى أسس علم النفس المعرفي، في حين أن مفهوم ياوس يستند إلى أسس أخرى، أهمها هرمينوطيقا كادمر وظاهرية هوسرل. وهو اختلاف على مستوى الرؤية والنتيجة.

إن محاولة الباحث جادة، حاول فيها أن يجرب تصورًا حديثًا تتقاطعه مجالات عديدة، ولتجريبه اختار فضاءً واسعًا يمتد إلى أكثر من عقود من الزمن وعلى نص يكفي أن يقال عنه إنه أقام الدرس ولم يقعده. يبقى السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح بعد تحديد الإطار المنهجي: إلى أي حد استلهم الباحث مفهوم أفق التوقع؟ وإلى أي حد استجاب لبيئة القراءات العربية؟

المنهج ونقد قراءة القراءات

إن قراءة القضايا في ضوء مناهج حديثة، يجعل الباحث أحيانا يتشبث بالإطار المنهجي، ومحاولة البحث عن أصوله داخل العمل. مما يجعلنا نتعسف على العمل خصوصا حينما يتمنع النص أو يتمنع تاريخه. إن المطلوب هو محالة فهم المناهج وتكييفها مع طبيعة النصوص المدروسة، وهذا ما حاول الباحث أن يقوم به لكنه مع ذلك سقط في بعض الأمور التي قد نختلف معه فيها، وسأحاول إجمالها والانطلاق من التقسيم المنهجي الذي اتبعه بخصوص تقسيم محطات التلقي، وذلك على الشكل الآتي:

- التلقي الإحيائي بين اتجاهاته الثلاثة

إن ممارسة الكتابة داخل جنس معروف سواء بمحاكاته أو التفوق عليه، إنما هو فعل طبعي يرتبط بتطور الجنس داخل فضاء ثقافي معين حيث تتدخل فيه رؤيتنا

للجنس والقواعد المحددة لها والتوق نحو إبراز ذواتنا تجاهه تقليدا أو تجاوزا. فقصائد البارودي إنما هي امتداد لصور القصيدة سواء تلك التي تنتمي إلى العصر الجاهلي أو العباسي أو التي تنتمي إلى عصور أخرى. إنه ليس إحياء بقدر ما هو إعادة إنتاج الظواهر وفق أسئلة جديدة. ومن هنا لا يمكن عَدُّ إعادة إنتاج جنس المقامة في نهاية القرن 19م تلقيا، وذلك لأن حركية المقامة لم تتوقف مع الحريري بل استطاعت أن تستمر في عصور متفاوتة، ونذكر هنا مقامات ابن الجزري والبهاء السنجري ولسان الدين بن الخطيب الأعمى التطيلي وغيرهم بوصفها نماذج تشهد على استمرار المقامة. إذن المقامة لم تمت لنعيد إحياءها بل ظلت تكابد لتحافظ على بقائها، وهي المكابدة التي استمرت مع اليازجي والمويلحي. يمكن أن نقول: إن طاقتها الجمالية تراجعت، وبدأت تعيد استهلاك نفسها. وهو الاستهلاك نفسه الذي ظل في محاولات اليازجي وغيره.

يؤكد الباحث أن إخراج متن المقامة مطبوعا ومصححا سنة 1889يعد نمطا من أنماط التلقي؛ «لأن اختيار هذه المقامات دون غيرها اعتراف من محمد عبده بتميزها من غيرها بما فيها مقامات الحريري» [8]، وسمى هذا النمط بالتلقي الفيلولجي. والواقع أن تحقيق المصادر ما هو إلا عملية طبيعية تحاول إبراز بعض القيم الثقافية العربية، وكقياس لتصور الباحث، هل يمكن عَدُّ تحقيق الأعلم الشنتمري لشرح الحماسة تلقيا مع العلم أن شروح الحماسة أقيمت حولها دراسات نظرية وتطبيقية حديثة، وهل كل ما يقدمه مجال التحقيق يعد ضربا من ضروب التلقي التي يشترك أفقها مع أفق القراءات المقدمة في حقبة زمنية ما؟

المستوى الثالث من مستويات التلقي التي ربطها الباحث بالتلقي النقدي، حيث يعود إلى إشارات طفيفة أوردها الطهطاوي و المقدسي؛ لتصبح في عرف الباحث قراءة نقدية. ونتساءل هنا ما الأفق الذي تنطلق منه هذه القراءات؟ وما الآليات المشتركة بين هذه الإشارات؟

يتضح مما سبق أن الباحث فتح مفهوم القراءة على تصورات أخرى مما جعله

يتخطى مفاهيم ياوس، فالقراءة لم تعد عملية تستند إلى آليات وأعراف قرائية مشتركة تخضع لمنطق السؤال والجواب بقدر ما هي عملية ربطت بالمفهوم اللغوي للقراءة أكثر مما هو إستراتيجية تاريخية. لطالما أكد ياوس أن القراءة الانطباعية لا تعد قراءة؛ لأنها لا تنطلق من أي أعراف وسنن وتقاليد معينة بقدر ما يطبعها التسرع. مما يعني أن التلقي الإحيائي ظل يستعيد المقامة بأشكال مغايرة، ولم ينتج قراءة بقدر ما أنتج مادة أولية ستمهد لجيل الاستبعاد؛ كي يعلن موقفه ويحسم حسابه معها، كما حسم هذا الجيل مع التراث بأكمله.

- التلقي الاستبعادي بين الإثبات والنفي

لقد ظل الباحث في هذا الفصل مسكونا بالأفق العام مجاهدا في إثبات فرضيته التي تقول: إن القراء يشتركون في وسائل قرائية، ومن ثم تكون النتائج متشابهة. والحال أن النتيجة التي توصل إليها تقوم على التعارض في النتائج مما يعني أن التصورات مختلفة، وهو ضرب صريح لمفهوم الأفق العام. فقراءة محمد حسنين هيكل ومن معه رفضت أي قيمة لهذه القُمَامة التي ترى أنها مجرد حظائر لغوية ضيقة ينبغي أن تموت. في حين قراءة الزيات وأحمد أمين حاولت إثبات أهمية المقامة من حيث لغتها ودورها التعليمي. وهناك تعارض آخر على مستوى المقدمات والنتائج فقراءة روحي الخالدي، وفخري أبو السعود أكدت السمة القصصية والدرامية لشخصيات المقامة، وهي الفكرة التي استبعدها هذا الجيل.

إن تعارض القراءات يثبت أن ليس هناك مشترك بينها مما يعني أن مفهوم ياوس لم يستجب لهذه التحولات التاريخية، فالحقبة الواحدة أنتجت قراءات عديدة ومتناقضة، مما يعني أن الجيل كان متأثرا بتوجهاته الفكرية المتنوعة، وهو الصدام الذي خلف لنا صراعات مازلنا نعيش صداها، بين اتجاهين، اتجاه رأى القديم رؤية تقديس، واتجاه رأى القديم رؤية تدنيس، ومن هذه الرؤية حددت المواقع من جنس أدبي هو المقامة، ليس بوصفه نصا إبداعيًّا بقدر ما هو نص يترجم ثقافة بأكملها.

- القراءة التأصيلية وهاجس الرد

إذا عقدنا مقارنة بسيطة بين قراءة جيل الاستبعاد وجيل التأصيل، نكتشف أنهما قراءتان تقفان على حد التناقض، فالأولى ترفض جنس المقامة وتعده لونًا سلطانيا ميتا، والثانية تثبت تفوق المقامة. وعليه إن جيل التأصيل ظل محموما بالرد على الجيل السابق، ولم يتطلع إلى دراسة متن المقامة، مما يعني أنه استبعاد من نوع آخر وإن كان قد انتصر للمقامة. أما جيل كيليطو فهذا يمكن أن يشكل جيلا قرائيا بامتياز؛ لأنه انفتح على مفاهيم جديدة مكنته من كشف بعض الأسرار الداخلية.

إن قراءة نادر كاظم تجاوزت أحيانا مفهوم الأفق العام لياوس إلى مفهوم القارئ النموذجي لريفاتير حيث جمع الباحث المشترك بين القراءات، وحاول أن يحدد السمات المشتركة فيما بينها.

تبقى محاولة نادر جادة في مجالها؛ لأنها هي الأولى، وتبقى البداية صعبة، لهذا فإنه يعول على الجيل الجديد أن يسهم في تعميق هذا النقاش ودفعه إلى التطور. ومحاولة تطبيقه على نصوص أخرى كنصوص الجاحظ، ورسائل المعري، ودواوين الشعر العباسي، وغيرها من الأنواع الجمالية التي أنتجتها الثقافة العربية، واعتكف عليها الباحثون بالدرس والتمحيص.

الهوامش والإحالات:

1 – قدمت هذه الورقة في وحدة النص الشعري القديم في ضوء المناهج الحديثة التي يرأسها الدكتور محمد أمين المؤدب، ونتوجه بالشكر الجزيل إلى الدكتور محمد مشبال والطلبة الباحثين لموسم 2006/ 2007 الذين ناقشوا الموضوع بجد وحب.

2 – المقامات والتلقي، بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 2003.

3 – المقامات والتلقي ص 92.

4 – يقول ريفاتير: إن الظاهرة الأدبية هي جدلية النص والقارئ: جونتان كولير. النظرية الأدبية.

5 – جمالية التلقي: سامي إسماعيل، المكتب الأعلى للثقافة، ط1 2002.

6 – جمهور المسرح، نحو نظرية في الإنتاج والتلقي المسرحيين ترجمة سامح فكري، أكاديمية الفنون ط2، 1995. ص75.

7 – نظرية الأجناس الأدبية: كارل فيبتور وآخرون، ترجمة عبد العزيز شبيل، كتاب النادي الأدبي الثاقفي بجدة، العدد 99، 1994، ص86.

8 – المقامات والتلقي: ص133.